تاريخ التعليم فى مصر

تحت حكم عباس وسـعيد واسماعيل

تأليف

الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

توفر الدكتور أحمد عزت عبد الكريم على دراسة ناحيـة من أهم نواحى نهضتنا الحديثة وأبعدها أثرا فى جميع ميادين التقدم والرقى ؛ تلك هى ناحية التربية والتعليم فى تاريخ مصر الحديث . وهو باهتمامه بعلاج هذه الناحية قد عمل على ملء فراغ خطير لأن ميادين دراسـة التربية والتعليم لا تزال فى بلادنا ، على الرغم من خطورتها ، من أفقر الميادين . وقد بذل المؤلف جهدا عظيما لعلاج هذا النقص فأتحفنا بعدد من المؤلفات القيمة فى فترات متقاربة ، وأبرز الى عالم الوجود ما كان مختفيا بين جدران المتاحف وفى مخازن المكتبات ودور المحفوظات من التقارير والوثائق وصاغ من كل ذلك بيانات مرتبطة واضحة واحصاءات دقيقـة وافية تبين تطورات التعليم واتجاهـاته من ناحية الأنظمـة والمعاهد والمناهج والأغراض ، منذ ظهور محمـد على الكبير الى بدء الاحتلال البريطانى .

وكان كتاب تاريخ التعليم فى عهد محمـد على أول الغيث ؛ ثم تبع ذلك المؤلف النافع ظهور ثلاثة مجلدات ومجلد خاص باللوائح والوثائق التعليمية ، تعالج تاريخ التعليم فى عصر عباس وسعيد واسماعيل . وقد تولت وزارة المعارف طبع هذه الأجزاء تقديرا لجهود المؤلف وبحوثه القيمة . والأجزاء الثلاثة الأخيرة هى موضوع بحث اليوم .

يعالج المؤلف فى المجـلد الأول تاريخ التعليم فى مصر فى عصرى

عباس وسعيد ؛ فيبدأ بالاشارة الى الظروف التى تولى فيها عباس الحكم وهى ظروف لاشك تستدعى التدبر والاناه نظرا للصعوبات المالية التى عقبت عهد محمد على ، ولكن عباس آثر الانكماش والنكوص وتذرع بالرجعية المطلقة فأغلق أغلب معاهد التعليم وشتت تلاميذها ومعلميها . وكان أقسى ما وجه للتعليم من ضربات غلق التجهيزية والمبتديان والغاء مكاتب الأقاليم التى ما كادت تنبت فى عصر محمد على حتى عاجلها عباس بالفناء وبذلك عمل على تقويض الأساس الهام لكل تقدم أو اصلاح ولم يفن شيئا كثيرا عنايته ببعض نواحى التعليم كارسال البعوث العلمية الى الخارج أو الاهتمام الكبير بانشاء المدرسة المفروزة لاعداد الضباط اللازمين للجيش .

وينتقل القارىء من عصر الظلمات أو عصر عباس الى عصر لا يتخلله الا بصيص ضئيل من الأمل والنور ، وذلك هو عصر سعيد ، الذى يصبح التعليم فيه عرضة للتيارات والأهواء المتضاربة بسبب عدم استقرار الوالى على خطة ثابتة فهو لا يكاد يفرغ من اقامة معهد حتى تذهب عنه الحماسة الأولى فيتخلى عنه ويشتت طلابه أو ينقلهم الى نوع آخر من الدراسة لا عهد لهم به . ولم يكن المدرسون وموظفو الديوان بأسعد حظا من الطلاب . على أن المؤلف يحاول اثناء تصويره لمحنة التعليم فى هذين العصرين أن يفتح بابا للأمل فيشير الى ظهور الشخصيات التى بدأت تؤثر فى التعليم وتوجهه بعض التوجيه المستقيم مثل على مبارك وأدهم باشا ورفاعه بك رافع ، كما يشير الى وضع أساس بعض المبادىء الهامة التى يقول عنها انها تؤرخ عصرا جديدا فى نظريات التربية فى مصر كمشروع انشاء مكاتب « الملة » لتعليم أبناء الشعب وتربيتهم . كما يبين أهمية البعوث العلمية الى البلدان الأوربية التى استمرت خلال العهدين فكانت نبراس هدى وسط الظلمة الشاملة .

وما من شك فى أن المؤلف لاقى صعوبات جمة فى دراسة التعليم

دراسة متصلة فى تلك الفترة المليئة بالاضطراب والفوضى . فركز جل اهتمامه على الوقوف على أنواع المدارس من أولية وابتدائية وتجهيزية وخصوصية وما اشتملت عليه خططها ومناهجها الدراسية وما مرت به من مختلف المحن والتقلبات تبعا لاهواء الحكام . كما عنى باستقصاء أسماء النظار والوكلاء والمدرسين وطلاب البعثات وأنواع دراستهم فى البلاد المختلفة ، وأساليب الحياة المدرسية وتطورات ديوان المدارس والشخصيات البارزة التى عملت على تكوينه . على أن المؤلف لا يكتفى عند علاج هذه النواحى بسرد المعلومات بل يعمل على تمحيص الحقائق ، وبوازن بين مختلف المصادر ويراعى التسلسل والتطور فى أسلوب المؤرخ والأديب معا .

يفرد المؤلف بعد ذلك مجلدين ضخمين لدراسة التعليم فى عصر اسماعيل ذلك العصر الملىء بروح المغامرة والحيوية والتجديد . ويطالعنا فى المجلد الأول بأمتع وأهم ناحية من نواحى التعليم الا وهى محاولات نشر التعليم الأولى والابتدائى بين أبناء الشعب بقصد النهوض بمستوى الحياة العامة ، وتلك أمنية كانت تجيش فى الصدور منذ أمد بعيد ولكنها لم تأخذ مظهرا جديا أو طابعا قوميا الا فى عهد اسماعيل فقد نادى بضرورة تعليم أبناء الشعب مجلس شورى النواب فى اجتماعاته الأولى ، وفى لائحة رجب الشهيرة سنة ١٨٦٧ وضعت الخطط والتفاصيل لنشر التعليم الشعبى عن طريق اشراك الأهالى فى تحمل نفقات التعليم والاهتمام بشأنه واخضاع الكتاتيب لرقابة الدولة . وفى سنة ١٨٨٠ ، يجدد قومسيون تنظيم المعارف المشروع ويعمل على تلافى العوامل التى أدت الى فشل مشروع لائحة رجب . وتعد تلك المحاولات دليلا واضحا على ظهور الوعى القومى فى البلاد وتنبه الشعب للعناية بشئونه والمطالبة بحقوقه . ويبين المؤلف هذا الاتجاه بوضوع عندما يشير الى أن الأسر بدأت تهتم بأمر التعليم وأخذت تتبارى فى ارسال أبنائها

للمدارس . وقد كان التعليم قبل ذلك شيئا مخيفا يفرض على التلاميذ الذين كانوا يؤخذون بنظام عسكرى صارم . كما يظهر هذا الاتجاه فى تكوين مجلس أعلى للمعارف وتنظيم ديوان المعارف تنظيما يجعله مهيمنا على كل نواحى التعليم وملما بكل وثائقه وتفاصيله ، فلم يعد الحاكم ينفرد مع نفر قليل بتوجيه سياسة التعليم فى البلاد . وكان من بوادر هذه اليقظة أيضا التنبه الى ضرورة التوفيق بين التعليم الاسلامى القديم والتعليم الحديث وهى مشكلة لا تزال تشغل أذهان المربين الى وقتنا هذا .

وعلى وجه الاجمال يبين لنا هذا الجزء بوضوح محاولات نشر التعليم الشعبى وما مرت به من عقبات . وهبوط وصعود ؛ ونخرج بفكرة واضحة وهى أن تحقيق النجاح كان دون السعى والجهد ، وان محاولاتنا اليوم فى التوفيق بين أنواع التعليم فى المراحل الأولى تشبه الى حد كبير محاولات عصر اسماعيل لأننا فى الواقع لم نتقدم الا تقدما يسيرا ... على الرغم من مضى أكثر من ثمانين عاما .

وفى الجزء الثانى يعالج المؤلف التعليم فوق الابتدائى أى التعليم التجهيزى والخصوصى أو العالى والبعثات العلمية الى البلدان الأوربية ؛ ويعرض المؤلف فى ذات الوقت للاصلاحات المختلفة فى تنظيم التعليم والادارة والخطط الدراسية ومحاولة تنظيم دراسة اللغة الأجنبية وتحديد المرحلة التى تبدأ فيها دراسة تلك اللغة والمرحلة التى يبدأ عندها تدريس الأجرومية ، وتنظيم الامتحانات وتعليق أهمية على منح الشهادات النهائية وتقرير مبدأ الاشراف على المعاهد الأجنبية ، والعناية بتعليم البنات وانشاء مدارس لاعداد المعلمين ومدارس لذوى العاهات. كذلك لايهمل الكتاب الخطط والمصروفات وأسماء النظار والوكلاء والمدرسين والضباط .

ويجد القارىء متعة فى تتبع أكثر هذه النـواحى التى عنى المؤلف بابرازها لأنها لا تزال وثيقة الصلة بمشاكلنا التعليمية ، وفى دراستها تفهم لاتجاهاتنا الحالية وتلك غاية من غايات المؤلف الرئيسية .

مصـادر الكتاب :

وقد استعان المؤلف بمصادر كثيرة أهمها الدفاتر المصرية والتركية ولوائح التعليم ومذكرات المشرفين على شئون التربية فى تلك الحقبـة من الزمن ، وكتب المعاصرين كمؤلفات دوريك وعلى باشا مبارك والشيخ محمد عبده ، والوثائق المختلفة الخاصة بحركة اصلاح التعليم . ولا شك أن الرجوع الى تلك المصادر الأصلية يطبع الكتاب بطابع الجدة ويبين ما يدل المؤلف من جهد فى البحث والتنقيب والاستخلاص والتبويب .

ولست أبتغى فى هذه العجالة حصرا لجميع نواحى البحث أو بيانا لأهمية كل ما أتى به المؤلف من الحقائق والبيانات الكثيرة المتفرقة وانما أروم من وراء هذه الملاحظات العابرة أن أوجه الأذهـان الى أبواب ومنافذ تؤدى الى العثور على ثروة وافرة من المعلومات والآراء ممـا لا يستغنى عنه مشتغل بالتاريخ المصرى الحديث أو بالتربية .

على أنى لا أنكر أن وفرة المعلومات والحقائق والبيانات التى كشف عنها المؤلف نشأ عنها تشعب فى البحث وضاعت بين ثناياها وتعاريجها الأغراض الرئيسية وأغرت المؤلف على الخوض فى تفاصيل لا حصر لها فأكثر من ذكر أسماء نظار المدارس وضباطها وعدد التلاميذ فى السنوات المتعاقبة ، وزيادة المصروفات أو نقصانها والأطوار المتباينة التى مرت بها كل مدرسة ، وأسماء المدارس الأجنبية الكثيرة وموظفى ديوان المدارس وتنقلاتهم ... الخ مما يجعل الكتاب يبدو أشبه بتقويم للتعليم منـه بمؤلف متماسك الأجزاء ، محبوك الصنعة موحد الغرض . وكان من الممكن الاكتفاء بذكر كثير من البيانات والتفاصيل والاحصاءات فى

المجلد الخاص بالملحقات حتى يسهل على القارىء الوصول الى التطورات الرئيسية فى تاريخ التعليم فى مصر الحديثة ..

كذلك لم يعرض المؤلف لناحية ربما تكون ضرورية لاتمام البحث وبيان مدى التقدم العلمى فى مصر ، وهى ناحية الموازنة بين بعض نواحى التعليم والتقدم فى أهم البلاد الأوربية التى اتصلت بها مصر لأغراض ثقافية وبين ما حققته مصر أو لم تحققه عن أغراض التعليم الرئيسية . وكنت أود ان ألمس فى الكتاب زيادة العناية بطرق التربية ونقد الأساليب والأنظمة المتبعة فى مصر على ضوء ما كان سائدا فى الغرب من الأساليب أو شائعا من النظريات والنظم فى بعض البلاد الغربية . فلقد كانت مصر تهدف الى التشبه بالغرب وترتوى من مناهل علومه ومعارفه ، مما يشعر بالحاجة الى الوقوف على طرائقه وأغراضه فيما قد يعيننا من شئون التربية .

وحبذا لو كان المؤلف قد ركز جل عنايته عند دراسة التعليم فى عصر اسماعيل بصفة خاصة فى معالجة أهم الحركات والاتجاهات الثقافية التى تمخض عنها هذا العصر المليء بشتى التغييرات ، كظهور الوعى القومى فى ميدان التعليم ، ونشاط الجاليات الأجنبية وأثر ذلك فى النهضة القومية العلمية ، وحركة الاصلاح الأزهرية ، دون الافاضة فى التفاصيل والبيانات التى تشمل كل أنواع المدارس والمعاهد والمناهج والتنظيم والادارة مما يكاد يختنق معها المبادىء والآراء والنتائج .. وليس معنى ذلك أن المؤلف لم يتصد لعلاج هذه النواحى الهامة ، كلا فقد أولاها الكثير من عنايته ، ولكنا نأخذ عليه عدم الاقتصار على النواحى المميزة للعصر وابرازها فى قوة ووضوح بتجريدها مما لا يهم من التفاصيل .

بيد أن هذا النقد لا ينسينا فضل المؤلف فى الكشف عن حقائق هامة جديدة وعرضها فى أسلوب شائق جذاب وبطريقة علمية تتميز بالنقد والوضوح والاتزان مما يجعل لمؤلفاته فى تاريخ التربية مكانة رفيعة عالية .

اسماء فهمى